

وجود تابين القديم والجديد

المرحلة الدقيقة الحرجة التي تجتازها أمتنا العربية اليوم ، تحتاج إلى أن نعي لها كل طاقاتها من وعى الذات والنضال عن وجودنا الحر والطموح إلى حياة أعز وأفضل . ونحن أمة عريقة ، يمتد تاريخها إلى ماضٍ موغل في القدم ، وقد مرت بها على مسار ذلك الزمن الطويل ، عصور ازدهار وانحطاط ، سايرت يقظتها ووعيتها أو جمودها وغفلتها ، وهي لا تستطيع أن تحمى وجودها وتتابع سيرها على مراقق تقدمها ، ما لم تستقرى ماضى خطواتها على درب الزمن ، وتدرك سر قوتها وبقائها ، وعوامل ضعفها وتخلفها .

وقضية تراثنا تتسع أبعادها زماناً فتستوعب الماضى والحاضر والمستقبل ، كما ترحب مكاناً فتتجاوز حدود وطننا العربى إلى العالم الإسلامى الكبير ، ثم إنها فى جوهرها قضية وجود ومصير بما تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقتنا ، وما تضىء لنا من معالم الطريق وآفاق الطموح .

من هنا يأخذ موضوع « تراثنا » مكانه بين ما تُشغلون به من قضايانا الحيوية المعاصرة التى تتجه إليها دراستكم فى هذا المعهد الجدير بأن يتصدى لحمل أمانة التراث المشترك ، والدعوة إلى وضعه فى موضعه الصحيح من معركة الوجود والمصير . وقد يعطى الموضوع مزيداً من الأهمية ، أنه مظنة أن يُحمل على الماضى وحده ويُعزل عن حياتنا الجديدة . فحين يتحدث المتحدثون عن عزلتنا الفكرية ، يتجهون بها مباشرة إلى ما يشكون من قصور اتصالنا بجديد الفكر الغربى ، وقل فيهم من يشكو عزلتنا عن ماضينا نحن ، قريبه والبعيد .

وميدان الدراسات الجامعية ، يضح بأصداء الدعوة الملحة إلى تلبية حاجة العصر والاشتغال بمشكلات الحاضر وقضاياها ، ويُساء فهم هذه الدعوة فتتجه إلى

• هذا الكتاب ، ألقته محاضرات على طلاب قسم الدراسات الأدبية واللغوية ، بمعهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ١٩٦٨ .

الانفصام عن الماضي وتكر العكوف على تراثه ، ويفوتها إدراك ما في هذا الانفصام من خطرٍ على وجودنا اليوم وغداً . . .

والكُتّاب والنقاد الذين يسيطرون على مراكز التوجيه للوجدان القوي والفكر العام ، مشغولون بالبضاعة الحاضرة ، يتخرجون من الالتفات إلى التراث ، معتلرين بأنهم إنما يعيشون يومهم ويعالجون مشكلات واقعه .

ويغيب عنهم أن حاضرننا مشحون بما يحمل من ميراث هذا الماضي الذي تكمن في أعماقه جنور ذاتنا .

• • •

وحين يُدكّر التراث ، يتجه القصد منه غالباً، إلى نطاق محدود يحصره في قديم المخطوطات من علوم العربية والإسلام . فهنا وهناك ، وعلى امتداد الوطن الكبير ، تُوجّه عناية قلت أو كثرت ، إلى خدمة تراثنا وإحيائه ، فإذا كل ما ينشر منه أو أكثره ، لا يعلو ذخائر العربية : لغة وبلاغة وأدباً ، والإسلام : عقيدة وشريعة وفلسفة وتاريخاً . وننظر هنا وهناك وهناك ، فإذا جمهرة المشتغلين من قومنا بتحقيق التراث ، هم من علماء العربية وفقهاء الإسلام والمتخصصين في درس فلسفته وتاريخه .

ويُخشى أن يرمخ فينا هذا الفهم القاصر المحدود لتراثنا ، فيغيب عنا أول ما يغيب : أن تراثنا يستوعب إلى جانب ذلك كله ، ما ترك أسلافنا من ثمار عقولهم في مختلف فروع المعرفة وميادين العلم ، من طب وعقاقير وكيمياء ونبات ورياضيات وفلك . . . إلى آخر هذه العلوم التي لا تكاد تجد من يعنى بتراثها أو يحس حاجتنا إلى إعداد خبراء يشاركون علماء العربية والإسلام في حمل الأمانة الصعبة التي يفرضها علينا وجودنا .

وإذا كانت مهمة التراث الكشف عن جنورنا وعناصر أصالتنا وأسرار ذاتنا ، لكي يقدم الأساس الراسخ الوطيد لوجودنا الحاضر والمستقبل ، فيجب أن يتأصل الإدراك بأن تراث الأمة لا يقف عند بداية التاريخ الإسلامي الذي جمعنا فيه اللواء الموحد ، وإنما يمتد مع ماضيها إلى ما قبل ذلك، موعلاً في أعماق

الزمن : فاضى كلَّ الشعوب التي أسلمت وتعربت ، هو من ماضى هذه الأمة ، وكل الحضارات الفكرية والمادية التي ازدهرت في أرض وطننا ، هي في الواقع التاريخي ميراثنا جميعاً ، نحن الذين عرفنا التاريخ من القرن الأول الهجري أمةً واحدة .

وهذا الإدراك الواعي ، يصحح ما شاع فينا من أن مكاننا في التاريخ الحضاري ، لم يأخذ دوراً قيادياً إلا في العصر الوسيط حين كان الشرق الإسلامي منارةً للعلم والمعرفة والتمدن ، وأوروبا غارقة في ظلمات عصورها الوسطى . وهذا القول الشائع نشأ عن جهل أو غفلة عن الواقع التاريخي الذي يشهد بأن الأمة العربية في العصر الإسلامي ، قد اندمجت فيها كل الشعوب التي تعربت ، فصار ماضيها كله ، من ماضى هذه الأمة ، كما صار تراثها الفكري والحضاري ، ميراثاً لهذا الوطن الكبير .

ومن ثم لم يجوز أن نقف بالتراث عند حد زمني أو مكاني يحصره في نصوص الأدب الجاهلي وذخائر علوم العربية والتاريخ الإسلامي ، بل تمتد أبعاده فتستوعب التراث القديم لكل أقطار وطننا ، على امتداد الزمان والمكان . . .

فيدخل فيه مثلُ نصوص البردي المصري ، كما تدخل فيه النصوص التي كشفت عنها الحفريات الأثرية في بابل وآشور والشام واليمن ، ومصر والمغرب الكبير . . .

من حيث هي مادة تاريخية لماضى هذه الأمة الواحدة ، يأخذ مكانه مع تراثها المشترك من العصر الجاهلي ، وتراثها الحي من التاريخ الإسلامي ، إذ تتماهى الحدود والفواصل وتلتقي أفكاراً وروحاً ومزاجاً ولساناً ووجداناً ، وتتحدهم وجوداً ومصيراً :

بالشام أهلي وبغداد الهوي وأنا بالرقمتين وبالفسطاط إخواني

• • •

وقد يبدو هذا المفهوم الشامل لتراثنا غربياً علينا ، لكنه لم يكن كذلك في القرون الإسلامية الأولى ، حين كانت أمتنا في أوج قوتها وازدهارها . لقد اتسع أفقها الرحب لهذا الشمول ، فلم يكن تراث العصر الجاهلي ، يعني العرب الخالص وحدهم ، دون الشعوب التي أسلمت وتعربت . ولم تقم حركة جمعه وتدوينه على

أيدي الذين ينتمون بأصولهم وأنسابهم إلى الجزيرة العربية وحدهم ، وإنما شارك فيها بالقدر الأكبر ، من دخلوا في الإسلام وأظلمهم لواؤه . كذلك لم تقف حركة إحياء التراث على آثار الجاهلية وعلوم العربية والإسلام ، بل نشطت إلى جانبها حركة تعريب التراث العلمي لشعوب الدولة الإسلامية الكبرى ، واتسعت فاستوعبت تراث اليونان ، عن وعى يدرك أن الفكر اليوناني لم يبدأ من نقطة الصفر ، وإنما سبقته حضارات شرقية رائدة عريقة أعطته ميراثها ، كحضارة وادي النيل ووادي الرافدين والهند . . .

وما من ريب في أن هذا الشمول ، كان مظهرًا لوعي الأمة لذاتها ، بقدر ما كان مهيمًا لدورها القيادي بالحضارة الإسلامية .